اسباب ومقدمات التوسع الروسي في الدولة العثمانية

بدأت الدولة الروسية بعد ان تخلصت من عواقب التدخل البولندي والسويدي تأخذ بأسباب القوة واخذت تتحول الى دولة ملكية مستبدة راسخة واتسع دورها في الحياة السياسية لاوربا الشرقية بحيث ان اي قضية هناك لم يعد بالإمكان حلها بعزل عنها، وبهذا تكون مكانتها كدولة كبرى في اوربا قد بدأت تتحدد حتى حلول النصف الثاني من القرن السابع عشر.

ومع ذلك فقد كان على روسيا من اجل ان تتحول الى دولة كبرى بحق ويصبح لها دور فاعل في الشؤون الاوربية يضاهي الدور الذي تقوم به بقية الدول الاوربية الكبرى ولكي تحقق مصالح النبلاء الذين كانوا يسعون للاستيلاء على اراضي جديدة والتجار الذين كانوا يبحثون عن منفذ الى البحار المفتوحة ، وان تحل قضايا ثلاثة في غاية الاهمية . واول هذه القضايا هي ضم اراضي اوكرانيا وبيلاروسيا التي كانت تحت سيطرة ريتش بسبوليتا(بولندا) ، والثانية ايجاد منفذ الى بحر البلطيق وذلك بالاستحواذ على الاراضي المتاخمة له والتي كانت تحت سيطرة السويد وهي دولة قوية آنذاك . اما الثالثة فهي الوصول الى البحر الاسود وذلك بالاستيلاء على الاراضي العثمانية المتاخمة له والقضاء على خانية القرم التابعة للباب العالي.

التوسع الروسي في الدولة العثمانية في عهد كاترين الثانية

ان الظروف التي حصلت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر جعلت الوضع الدولي ملائما لتحقيق النوايا الروسية تجاه الدولة العثمانية ، اذ كانت الدولة العثمانية في ما دولة قوية جدا اصبحت في هذه الحقبة دولة ضعيفة اخذت بالتدهور والانحلال، بحيث انها لم تعد مؤهلة لإعاقة التوسع الروسي ، فضلا عن ذلك انهيار الامبراطورية الرومانية جراء اثار الحرب الثلاثين عاما (١٦١٨-١٦٤٨) ، وحرب السبع سنوات الى تقسيم اوربا الى معسكرين متصارعين والى تعميق العداء بين انجلترا وفرنسا ، فانهمكت هاتان الدولتان في نزاعهما مع بعضهما الامر الذي شغلها عن روسيا واعاقهما النوايا التوسعية.

سرعان ما تجددت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا في أعقاب اعتلاء كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٢) العرش الروسي واستمرت هذه الحرب عدة اعوام(١٧٦٨-١٧٧٤) فوقفت إلى جانب الدولة العثمانية النمسا وفرنسا بسبب مخاوفهما من تزايد النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، هذا فضلاً عن رغبة الدولة العثمانية بالمحافظة على ممتلكاتها في مناطق البحر الأسود وتوسيع أراضيها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، على حساب الأراضي الروسية والأوكرانية والبولندية.

سارت العمليات الحربية بانتصارات تتحول من جانب إلى آخر وفي عام١٧٧٣ مني العثمانيون بهزيمة كبيرة في نورتوكاي وبعد

ذلك عبر الجيش الروسي نهر الدانوب وأحرز العديد من الانتصارات الكبيرة.

بعد ان منيت القوات العثمانية بهزائم كبيرة اضطرت إلى إجراء المفاوضات السلمية، والتي واجهتها صعوبات كبيرة، إلا أنها تمخضت في نهاية الأمر عن توقيع معاهدة كجك كينارجة عام ١٧٧٤ ، على ان العلاقات الشخصية كانت لها الدور البارز في ذلك، خاصة بين فردريك الثاني ملك بروسيا والإمبراطورة الروسية، فقد كان فردريك الثاني متخوفاً من أن تؤدي الحرب الروسية – العثمانية إلى امتداد لهيبها داخل أوروبا نفسها فتكتوي هذه الدول بشررها ونيرانها كما وشعر دبلوماسي النمسا ان الدولة العثمانية الضعيفة جداً أقل إثارة للمشاكل من الدول الأوروبية التي تقف على رأسها كاترين الثانية.

رأت النمسا خلال محادثات السلام ضرورة اشراك العثمانيين كعضو في "التوازن الأوربي" الأمر الذي يشير صراحة ان الدولة العثمانية لم تعد قوة معادية من حيث المبدأ بل هي دولة شرعية على قدم المساواة مع الأعضاء الآخرين في النادي الأوروبي إلا أن كاترين الثانية، ورغبة منها، في تقسيم هذه الدولة اعترضت على هذا الاقتراح محتجة بأنها لا تستطيع التخلي عن مسيحيي البلقان.

تمخضت عن هذه المعاهدة العديد من النتائج المفيدة لروسيا والمضرة، بطبيعة الحال، للدولة العثمانية فبموجب هذه المعاهدة انتقلت الى روسيا الأراضي الواقعة بين بوغ الجنوبي والدنيبر مع قلعة كينبورن وكذلك قلعتا كيرتش وينيكاله عند بحر آزوف وفي

شمال القفقاس أصبحت كاباردا من نصيب روسيا واعترفت الدولة العثمانية باستقلال خانات القرم وبحق المرور الحر للسفن الروسية عبر مضيقي البسفور والدردنيل.

كانت هذه المعاهدة بداية النهاية للنفوذ العثماني على شبه جزيرة القرم، وفي عهد كاترين الثانية دخلت شبه جزيرة القرم تحت النفوذ الروسي. وتحديداً في عام ١٧٨٣ فكان فقدان الدولة العثمانية لهذه الأراضي بالنسبة لرعاياها أشبه ما تكون "اهانة وجهت لهم" هذا فضلاً عن تراكم الخسائر كما وأصبح بإمكان السفن الروسية الوصول إلى البحر الاسود والذي يمكن القول عنه بأنه،"بحيرة عثمانية مشددة الحراسة".

من ناحية أخرى نصت المعاهدة على عودة ولاكيا وملدافيا إلى الدولة العثمانية على ان تمنحا حقوقاً إضافية جديدة وعلى ان يكون للسفراء الروس الحق للدفاع عنهما امام السلطات العثمانية الأمر الذي يعني التدخل الروسي المباشر بالشؤون الداخلية للدولة العثمانية لاسيما وان هذه المعاهدة أقرت لروسيا الحق بالتحدث باسم رعايا السلطان المسيحيين.

رأت الدولة العثمانية في سكوتها على قيام روسيا باحتلال شبه جزيرة القرم حلاً مؤقتاً تفرضه عليها الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية ورأت ان ساعة استعادة هذه الأراضي المسلوبة مرهون بالظروف الدولية والداخلية وقد أزفت ساعة الصفر التي كانت تنتظرها الدولة العثمانية لإعادة هذه الأراضي السليبة إلى أحضان الوطن الأم فقد استغلت الدولة العثمانية مناسبة زيارة

الإمبراطورة كاترين الثانية وبرفقتها الامبراطور النمساوي جوزيف الثاني، الى شبه جزيرة القرم لتعلن الحرب على روسيا بعد ان رفضت الأخيرة طلب الدولة العثمانية بحل الخلافات بينهما بالطرق السلمية فاعلنت الحرب في آب ١٧٨٧وقد استمرت الحرب ما يقارب الخمس سنوات، دخلتها العديد من الدول الى جانب الدولتين المتحاربتين، طالبت الدولة العثمانية خلالها باستعادة القرم اما الحكومة الروسية فقد كانت بدورها تطمح في تعزيز موقعها في البحر الاسود نهائياً، جرت خلال اعوام الحرب العديد من المعارك الا ان اهم هذه المعارك هي المعركة التي استطاعت بأثرها القوات الروسية من احتلال قلعة إسماعيل، القاعدة العسكرية العثمانية على نهر الدانوب.

لم يؤد اعتلاء السلطان سليم الثالث (١٨٠٧-١٧٨٩) العرش العثماني الى تغيير مسار الحرب فقد احتلت روسيا الافلاق والبغدان (رومانياوملدافيا) كما واستطاعت النمسا، الداخلة حربها الى جانب روسيا، ان تحقق نجاحاً واضحاً في صربيا والبوسنة ثم استولت على بلغراد وبسبب تحرج موقف روسيا والنمسا بفعل عوامل خارجية وداخلية، فقد دفعت هاتين الدولتين الى طلب عقد الصلح فعقد الصلح مع النمسا في زشتوي بعد مساومات طويلة، في ٤ آب ١٧٩١ وبعد ان رأت روسيا نفسها أنها باتت وحدها في هذه الحرب تمكن مندوبو الطرفين، بعد مفاوضات مطولة وصعبة، ان يوقعوا في ياسي على معاهدة للصلح في ١٠ كانون الثاني ١٧٩٢ على ان تتخلى الدولة العثمانية بشكل قاطع عن مطالبها باستعادة القرم

وتتخلى عن اوزي لروسيا ايضاً كما، وأكدت المعاهدة على سريان مفعول المعاهدات السابقة التي جرى عقدها بين الدولتين وأعادت روسيا للدولة العثمانية (الافلاق ،البغدان، بندر، اسماعيل، كيلي، آق كرمان، وبوصاق) التي استولت عليها روسيا خلال الحرب. وبذلك انتهت هذه الحرب بنصر واضح لروسيا وبمكاسب إقليمية لا يستهان بها.

المصادر

1- B.D. Daisyuk, (ned) Istorya SSSR, Chast I, Moskva 1973, str,87.

٢- **هاشم صالح التكريتي ، المسالة الشرقية ، المرحلة الاولى (١٧٧٤-١٨٥٦) بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٩٠.**

٣- **احمد ناطق ابراهيم العبيدي، مضائق البسفور والدردنيل (١٧٧٤-١٨١٥) دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٣.**

٤- **دونالد كواترت ، الدولة العثمانية (١٩٢٥-١٧٠٠) ، ترجمة: ايمن ارمغازي، مكتبة العبيكات ، الرياض ، ٢٠٠٤.**

٥- **فاضل حسين وكاظم هاشم نعمة ، التاريخ الاوربي (١٨١٥-١٩٣٩) ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٢.**